



With thanks to the Schimmel Family for their generous sponsorship of Covenant & Conversation, dedicated in loving memory of Harry (Chaim) Schimmel.

The translation to Arabic was made possible through the generous funding of The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism and the generous donation of Mr. Myron Joshua from Kfar Etzion.

"مِشْبَاتِيم" هو النصّ الأسبوعي السادس من كتاب "شموت" (سفر الخروج) ويبدأ هذا النصّ الأسبوعي بالآية الأولى من المقطع الواحد والعشرين وينتهي بالآية الثامنة عشرة من المقطع الرابع والعشرين.

Arabic Translation by The Connecting Hamza NGO

الرؤية والتفاصيل

ياخذنا هذا النصّ التوراتيّ الأسبوعيّ عبر تحوّلٍ محيّرٍ، فحتى الآن، خلال رحلتنا في سفر شموت، أي سفر الخروج، كنّا منساقين مع مدّ الحكاية المستمرّ ودراما الأحداث المتواصلة؛ التي كان أولها استعباد بني إسرائيل وتعلّقهم بأمل الحرية، ثمّ الضربات الإلهية (الآفات) العشر وعناد فرعون، ثمّ الخروج من مصر إلى الصحراء، وعبور بحر سوف، أي البحر الأحمر، والرحلة إلى جبل سيناء، والتتويج العظيم لهذه المسيرة في صورة العهد المقطوع مع الله عزّ وجلّ.

لكنّا الآن نجد أنفسنا فجأةً أمام نوعٍ مختلفٍ تمامًا من النصوص، فهذا النصّ الأسبوعيّ بمثابة مدوّنة تشريعية تغطّي طيفًا واسعًا من الموضوعات؛ تشمل مسؤوليّة الإنسان إذا تسبّب بضررٍ، وحماية الممتلكات، وقوانين العدالة، وأحكام يوم الشّبات والأعياد. فلماذا ذُكرت كلّ هذه التفاصيل التشريعية هنا؟ ولماذا لم يستمرّ السردُ ليقودنا مباشرةً إلى الحدث الدراميّ التالي المتمثّل في خطيئة العجل الذهبي؟ لماذا يقع هذا الانقطاع في مجرى الأحداث؟ وما علاقة هذا كلّها بالقيادة؟

والجواب هو التالي: إنّ القادة العظام، سواءً أكانوا رؤساءً شركاتٍ كبرى أو كانوا آباءً وأمّهات، يمتلكون القدرة على ربط الرؤية الكبرى بالتفاصيل الدقيقة. فبدون رؤية واسعة، لا تكون التفاصيل سوى عبءٍ مُرهق.

وهناك حكاية مشهورة عن ثلاثة رجالٍ يعملون في تقطيع الحجارة. فعندما سُئلوا عمّا يقومون به، قال الأوّل: "أنا أقطع الحجارة". وقال الثاني: "أنا أكسب لقمة عيشي". أمّا الثالث فقال: "أنا أبني قصرًا". وهنا يكمن جوهر الرسالة التي أوّد نقلها: من لديهم القدرة على رؤية الصّورة الأكبر، يشعرون بفخرٍ أكبر في عملهم، فيعملون بجديّة وجودة أفضل. وهكذا، فإنّ القادة العظام يُلهمون شعبهم عبر الرؤية، لكنّهم في الوقت نفسه يهتمون بدقائق الأمور، حتّى كأنّهم يرغبون في تحقيق الكمال عندما يتعلّق الأمر بالتفاصيل. وتنطبق عليهم هذه المقولة الشهيرة: "العبقريّة هي 1% إلهام و99% جهدٌ ذوّب"، التي قالها المخترع ورجل الأعمال الأمريكي توماس ألفا إديسون.

وبالفعل، إنّ الاهتمام بالتفاصيل هو ما يُميّز كبار الفنّانين والشعراء والموسيقيّين وصانعي الأفلام والسياسيّين ورؤساء الشركات الكبرى عن أصحاب الأداء العاديّ. وكلُّ من قرأ سيرة ستيف جوبز التي كتبها والتر آيزاكسون يعلم أنّ اهتمامه بالتفاصيل كان يقترب من حدّ الهوس. فقد أصّر، على سبيل المثال، أن تحتوي جميعُ متاجر "أبل" على سلالم زجاجيّة، وحين أخبروه بعدم وجود زجاجٍ بالقوّة الكافية لهذا الغرض، أصّر على صنع زجاجٍ بهذه المواصفات، فقاموا بصنعه له بالفعل، وقد حصل على براءة اختراعٍ لهذا الابتكار الجديد.

تكمّن عبقرية التوراة في تطبيق هذا المبدأ لا على الأفراد فحسب، بل على المجتمع بأسره. فقد مرّ بنو إسرائيل بسلسلةٍ من الأحداث التي أحدثت تحوّلًا عميقًا فيهم. وكان نبيّ الله ورسوله موسى/موشيه يعلم أنّ هذه الأحداث لم يكن لها مثيلٌ في التاريخ قط، وكان يعلم، بفضل العلم الذي منحه إياه الله عزّ وجلّ، أنّ أيّا من تلك الأحداث لم يكن عرضيًّا ولم يقع مصادفةً؛ فقد اختبر بنو إسرائيل العبوديّة ليقدّروا نعمة الحرّية، وتعرّضوا للمعاناة حتى يعرفوا كيف يشعر الإنسان عندما يحيى تحت حكم سُلطةٍ طاغية. وعلى جبل سيناء، كانت رسالة الله عزّ وجلّ، على لسان نبيّه ورسوله موشيه، واضحة لهم: أن يكونوا "مَمْلَكَةً كَهَنَةٍ وَأُمَّةً مُقَدَّسَةً"، كما ورد في الآية السادسة من المقطع التاسع عشر من سفر الخروج، تحت سيادة الله عزّ وجلّ وحده. وكان الهدف أن يُنشئوا مجتمعًا يقوم على مبادئ العدل، وكرامة الإنسان، واحترام الحياة.

لكن لا الأحداث التاريخيّة وحدها، ولا المثلُ المجرّدة، ولا حتى المبادئ العظيمة التي شملتها الوصايا العشر، تكفي لبقاء المجتمع على المدى الطويل. ومن هنا جاء المشروعُ الفريدُ للتوراة، المتمثّل في تحويل التجربة التاريخيّة إلى تشريعٍ مُفصّلٍ ودقيق، بحيث يعيش بنو إسرائيل وفقًا لما تعلّموه، ويُطبّقونه في حياتهم اليوميّة، وينسجون في نسيج حياتهم الاجتماعيّة ذاتها. ففي النصّ الأسبوعي "مِشپاتيم" الذي بين أيدينا، تتحوّل الرؤية إلى تفاصيل، وتتحوّل القصة إلى شريعة.

على سبيل المثال، نجد أن إحدى الوصايا المذكورة في الآية الثانية من المقطع الحادي والعشرين من سفر الخروج تقول: "إِذَا ابْتُغِيَ عَبْدًا عِبْرَانِيًّا، فَلْيَخُذْكَ سِتُّ سِنِينَ، وَفِي السَّابِعَةِ، يَخْرُجْ حُرًّا مَجَانًّا". بهذا الوصية، تتحوّل العبودية، بعد سنين طويلة، من حالة يولد فيها الإنسان إلى ظرف مؤقت، أي تحوّل من كونها جزءًا من الهوية ("من أنت") إلى مجرد ما تقوم به "ماذا تفعل" في هذه المرحلة من حياتك. فالعبودية، وهي التجربة المريرة التي عاشها بنو إسرائيل في أرض مصر، لم يكن بالإمكان إلغاؤها دفعةً واحدة. والحقيقة أنّها لم تُلغ حتى في الولايات المتحدة إلّا في ستينيات القرن التاسع عشر، وبعد حربٍ أهليّةٍ مدمّرة. لكنّ هذه الوصية الافتتاحيّة في نصّ "مِشپاتيم" كانت بدايةً تلك الرحلة الطويلة.

وبالمثل، يضمّ هذا النصّ الأسبوعيّ الوصية الواردة في الآية العشرين من المقطع الحادي والعشرين من سفر الخروج: "إِنْ ضَرَبَ إِنْسَانٌ عَبْدَهُ، أَوْ أَمَتَهُ بِقَضِيبٍ، وَمَاتَ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيَقَدْ بِهِ". وإنّ المبدأ المهمّ الذي نتعلّمه هنا هو أنّ العبد ليس مجرد ملكيّة لسيده تُباع وتُشتري، بل له الحقّ في الحياة. وكذلك تنصّ شريعته يوم السّبات الواردة في الآية الثانية عشرة من المقطع الثالث والعشرين من سفر الخروج: "سِتَّةُ أَيَّامٍ تَصْنَعُ صَنَائِعَكَ. وَفِي الْيَوْمِ السَّابِعِ تَسُبُّتْ. لَكِي تَسْتَرِيحَ ثَوْرُكَ وَحِمَارُكَ. وَيَقَرُّ ابْنُ أَمَتِكَ وَالْغَرِيبُ مَعَكَ". وهذا مبدأ جديد وبديع: ففي يومٍ واحدٍ من كلّ سبعة أيّام، كان العبيد يتنفّسون هواء الحرّية.

وهكذا مهّدت هذه الوصايا الثلاث الطريق نحو إلغاء العبوديّة، وإن كان تحقيق ذلك قد استغرق أكثر من ثلاثة آلاف سنة. وهناك وصيتان تتعلّقان بخبرة بني إسرائيل كأقليّة مضطهدة: الأولى في الآية الحادية والعشرين من المقطع الثاني والعشرين من سفر الخروج: "وَالْغَرِيبُ فَلَا تَغْبِئْهُ وَلَا تَضْغَطْهُ. فَطَالَمَا كُنْتُمْ غُرَبَاءَ فِي بَلَدٍ مِصْرَ"، والثانية في الآية التاسعة من المقطع الثالث والعشرين من سفر الخروج: "لَا تَضْغَطْ غَرِيبًا. فَأَنْتُمْ تَعْرِفُونَ نَفْسَ الْغَرِيبِ. وَطَالَمَا كُنْتُمْ غُرَبَاءَ فِي بَلَدٍ مِصْرَ". وهناك أيضًا وصايا تستحضر جوانب أخرى من تجربة الشعب في مصر، مثل: "وَكُلُّ أَرْمَلَةٍ وَيَتِيمٍ لَا تَظْلِمُوا. فَإِنَّكَ إِنْ ظَلَمْتَهُ. وَصَرَخَ إِلَيَّ. أَجَبْتُهُ عَنْ صُرَاخِهِ"، كما ورد في الآيتين الحادية والعشرين والثانية والعشرين من المقطع الثاني

والعشرين من سفر الخروج، وهذا يُدْكَرُنا بما جرى في بداية قصّة الخروج من أرض مصر، كما ورد ابتداءً من الآية الثالثة والعشرين وانتهاءً بالآية الخامسة والعشرين من المقطع الثاني من سفر الخروج: "فَتَنْتَهَدَ بَنُو إِسْرَائِيلَ، مِنْ خُدْمَتِهِمْ الصَّعْبَةِ، وَصَرَخُوا، فَصَعَدَ تَجَوُّشُهُمْ إِلَى اللَّهِ، مِنْ الْخُدْمَةِ. فَسَمِعَ اللَّهُ شَهيقَهُمْ، وَذَكَرَ عَهْدَهُ، الَّذِي مَعَ أَقْرَاهَامَ وَيَشْحَقَ وَيَعْقُوفَ. فَتَنَظَرَ اللَّهُ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَرَحِمَهُمْ".

وفي مقالة شهيرة كتبها في ثمانينيات القرن العشرين أستاذ القانون في جامعة بيل، روبرت كافر (Robert Cover)، بعنوان "نوموس والسردية" (Nomos and Narrative)¹، قال إن وراء قوانين أي مجتمع كان يكمن دومًا ما يُسمّى "نوموس"، أي رؤية لنظام اجتماعي مثالي تسعى تلك القوانين إلى إيجاده. ووراء كل "نوموس" سردية (Narrative)، أي قصّة تشرح السبب الذي دفع مُشرعي ذلك المجتمع وروّاده الفكريين إلى تبني تلك الرؤية المحددة عن النظام المثالي الذي أرادوا بناءه، ومعظم أمثلة كافر مأخوذة من التوراة، وفي الواقع يبدو تحليله أقرب إلى وصف الظاهرة الفريدة التي نعرفها باسم "التوراة"، منه إلى وصف القانون بمعناه الحرفي.

لا يُمكن ترجمة الكلمة العبريّة "توراة" بكلمة واحدة، لأنها تحمل معاني متعدّدة لا تجتمع معًا إلا في الكتاب الذي يحمل هذا الاسم. فهي تعني "شريعة"، لكنها تعني أيضًا "تعليمًا" و"إرشادًا" و"هداية" أو بصورة أوسع "توجيهًا". كما أنّها الاسم الجامع للكتب الخمسة الأولى من الكتاب المقدّس اليهودي، من سفر التكوين حتّى سفر التثنية، التي تجمع بين السرد التاريخي والتشريع معًا.

وعادةً ما يكون القانون والسرد جنسين أدبيين مختلفين لا يكادان يلتقيان؛ فمعظم كتب القوانين لا تروي القصّة التي تقف خلف هذه القوانين، ومعظم القصص لا تحتوي على أيّ تشريعات. وكما لاحظ روبرت كافر نفسه، قد يعرف الناس في بريطانيا أو أمريكا تاريخ قانون ما، لكن لا يوجد نصّ قانوني مُعتمَد يجمع بين القصّة والقانون معًا. وفي الغالب، توجد طرقٌ عديدة لرواية القصّة، وتُسنّ معظم القوانين دون توضيحٍ لسبب سنّها، أو ماذا تهدف إلى تحقيقه، أو أيّ تجربة تاريخيّة أفضت إلى سنّها.

لهذا كانت التوراة مزيّجا فريداً بين الـ"نوموس" (Nomos) والـ"سردية" (Narrative)؛ بين التاريخ والشريعة؛ بين التجارب التأسيسية للشعب اليهودي، والطريقة التي أراد أن يعيش بها حياته الجماعيّة بحيث لا ينسى أبداً الدروس التي تعلّمها على امتداد مسيرته. إنّ التوراة تجمع بين الرؤية والتفاصيل على نحوٍ لا يُضاهيها فيه أيّ كتابٍ آخر.

وهذا هو التّهج الذي علينا أن نحتذي به إن أردنا أن يسير الناس معنا ويُقدّموا أفضل ما عندهم. فلا بُدّ من وجود رؤية تُلهمنا، وتُخبرنا لماذا علينا أن نفعل ما يُطلَبُ منا. ولا بُدّ من وجود قصّة توضّح لنا: ما حدث، ومَن نحن، ولماذا نُعتبرُ هذه الرؤية مهمّةً جدًّا بالنسبة لنا. ثمّ لا بُدّ من وجود المدونة التشريعية، والاهتمام البالغ بالتفاصيل، الذي يُتيح لنا أن نُترجم الرؤية إلى واقعٍ معاش، وأن نحوّل ألم الماضي إلى بركات المستقبل. هذا المزيج الاستثنائي، الذي لا نجده في أيّ مدونة تشريعية أخرى، هو الذي يمنح التوراة قوتها الدائمة، وهو النموذج لكلّ من يسعى إلى قيادة الناس نحو العظمة.

1. Robert Cover, "Nomos and Narrative," Foreword to the Supreme Court 1982 Term, Yale Faculty Scholarship Series, Paper 2705, 1983. The paper can be found at http://digitalcommons.law.yale.edu/fss_papers/2705.

Arabic Translation by The Connecting Hamza NGO

Sponsored by The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism, Bar Ilan University and the generous donation of Mr. Myron Joshua from Kfar Etzion

